إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾.

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر وإذا قالوا شعرًا قالوه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله ﷺ والصحابة وصلحاء الأمة وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب، ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم قال الله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا مَن ظُلم﴾[1]، وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[2]، وعن عمر بن عبيد: أن رجلاً من العلوية قال له: إن صدري ليجيش بالشعر فقال: فما يمنعك منه فيما لا بأس به والقول فيه: أن الشعر باب من الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام وقيل: المراد بالمستثنين: عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت والكعبان: كعب بن مالك وكعب بن زهير، والذين كانوا ينافحون عن رسول الله ﷺ ويكافحون هجاة قريش، وعن كعب بن مالك: أنّ النبي ﷺ قال له: «أهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ عليهم من النبل»[3] وكان يقول لحسان: قل وروح القدس معك[4]، ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ولا أنكى لقلوب المتأمّلين، ولا أصدع لأكباد المتدبرين ولذلك قوله: ﴿وسيعلم﴾ وما فيه من الوعيد البليغ وقوله: ﴿الذين ظلموا﴾ وإطلاقه وقوله: ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ وإبهامه وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه[5] وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدّتها وتفسير الظلم بالكفر تعليل، ولأن تخاف فتبلغ الأمن خير من أن تأمن فتبلغ الخوف وقرأ ابن عباس: أي منفلت ينفلتون، ومعناها: إنّ الذين ظلموا يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو: النجاة. اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا والله أعلم بالصواب. قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام»[6].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النمل مكية

طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾.

﴿طس﴾ قرئ بالتفخيم والإمالة و﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة، والكتاب المبين: إما اللوح وإبانته أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه إبانة وإما السورة، وإما القرآن وإبانتهما أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع وأنّ إعجازهما ظاهر مكشوف وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم لأنّ المضاف إلى العظيم يعظم؛ بالإضافة إليه.

فإن قُلْتَ: لم نكر الكتاب المبين؟ **قُلْتُ:** ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له كقوله تعالى: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[7].

فإن قُلْتَ: ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن؟ **قُلْتُ:** كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك: هذا فعل السخي والجواد الكريم؛ لأنّ القرآن هو المنزل المبارك المصدق لما بين يديه فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح، فكأنه قيل: تلك الآيات آيات المنزل المبارك أي كتاب مبين وقرأ ابن أبي عبلة: وكتاب مبين بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين هذا وبين قوله: ﴿آلر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾[8]! **قُلْتُ:** لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدّم والتأخر وذلك على ضربين: ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب، وضرب فيه ترجح فالأوّل نحو قوله تعالى: وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدًا ومنه ما نحن بصدده والثاني نحو قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾[9].

هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾.

﴿هدى وبشرى﴾ في محل النصب أو الرفع، فالنصب على الحال أي: هادية ومبشرة والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة والرفع على ثلاثة أوجه: على هي هدى

(1) سورة النساء، الآية: 148.
(2) سورة البقرة، الآية: 194.
(3) أخرجه عبد الرزاق 11/263، (الحديث: 20500)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في إنشاد الشعر، (الحديث: 2847).
(4) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، الحديث: (3212 و3213)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل حسان بن ثابت، الحديث: (151 ـ 2485).
(5) أبو حاتم وابن سعد في الطبقات، الزيلعي 2/481 ـ 482.
(6) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي 2/483.
(7) سورة القمر، الآية: 55.
(8) سورة الحجر، الآية: 1.
(9) سورة آل عمران، الآية: 18.

وبشرى وعلى البدل من الآيات وعلى أن يكون خبرًا بعد خبر أي: جمعت أنها آيات وأنها هدى وبشرى والمعنى في كونها هدى للمؤمنين أنها زائدة في هداهم قال الله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا﴾[1].

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾.

فإن قُلْتَ: ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ كيف يتصل بما قبله؟ قُلْتُ: يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية.

كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة وهو الوجه ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية، وكرر فيها المبتدأ الذي هو هم حتى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأنّ خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق[2].

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾.

فإن قُلْتَ: كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته، وقد أسنده إلى الشيطان في قوله: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾[3] **قُلْتُ:** بين الإسنادين فرق وذلك أنّ إسناده إلى الشيطان حقيقة وإسناده إلى الله عزّ وجلّ مجاز وله طريقان في علم البيان أحدهما: أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة والثاني أن يكون من المجاز الحكميّ، فالطريق الأوّل: أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق وجعلوا إنعام الله بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم، وبطرهم وإيثارهم الروح والترفه ونفارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة، فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم وإليه أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، والطريق الثاني: أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فأسند إليه؛ لأنّ المجاز الحكميّ يصححه بعض الملابسات، وقيل: هي أعمال الخير التي وجب عليهم أن يعملوها زينها لهم الله فعموها عنها وضلوا[4] ويعزى إلى الحسن، والعمه: التحير والتردّد كما يكون حال الضال عن الطريق وعن بعض الأعراب أنه دخل السوق وما أبصرها قط، فقال: رأيت الناس عمهين أراد: مترددين في أعمالهم وأشغالهم.

أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾.

﴿سوء العذاب﴾ القتل والأسر يوم بدر، و **﴿الأخسرون﴾** أشدّ الناس خسرانًا؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله.

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾.

﴿لتلقى القرآن﴾ لتؤتاه وتلقنه **﴿من﴾** عند أي **﴿حكيم﴾** وأي **﴿عليم﴾** وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه.

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾.

﴿إذ﴾ منصوب بمضمر وهو: اذكر كأنه قال على أثر ذلك: خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ويجوز أن ينتصب بعليم، وروي أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته، وقد كنّى الله عنها بالأهل فتبع ذلك أو ورد الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله: امكثوا، الشهاب: الشعلة

---

(1) سورة التوبة، الآية: 124.

(2) قال أحمد: قد تقدّم في غير موضع اعتقاد أن إيقاع الضمير مبتدأ يفيد الحصر، كما مر له في قوله تعالى: ﴿هم ينشرون﴾ أنّ معناه: لا ينشر إلا هم، وعد الضمير من آلات الحصر كما مر ليس ببيّن، وقد بينا لمجيء الضمير في سورة اقترب وجهاً سوى الحصر، وأما وجه تكراره ههنا والله أعلم، فهو أنه لما كان أصل الكلام وهم يوقنون بالآخرة، ثم قدم المجرور على عامله عناية به فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر، فأريد أن يلي المبتدأ خبره، وقد حال المجرور بينهما فطري ذكره ليليه الخبر، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقي على حاله مقدماً، ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعدما يوجب التطرية، فاقرب منها أن الشاعر قال:

سق نو عجل ذا والحفنا بذا الشحم إنا قد مللنا بخل

والأصل والحقنا بهذا الشحم فوقع منتصف الرجز أو منتهاه، على القول بأنّ مشطور الرجز بيت كامل عند اللام وبنيّ الشاعر على أنه لا بدّ عند المنتصف أو المنتهى من وقيفة ما، فقدّر بتلك الوقفة بعد أن بين المعرّف وآلة التعريف فطراها ثانية، فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأوّل وبين المكرّر، ولا كلمة واحدة سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير، فتأمّل هذا الفصل، فإنه جدير = بالتأمّل، والله أعلم.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 38.

(4) قال أحمد: وهذا الجواب مبني على القاعدة الفاسدة في إيجاب رعاية الصلاح والأصلح، وامتناع أن يخلق الله تعالى للبعد إلا ما هو مصلحة، فمن ثم جعل إسناد التزيين إلى الله تعالى مجازاً وإلى الشيطان حقيقة، ولو عكس الجواب لفاز بالصواب، وتأمّل ميله إلى التأويل الآخر من أنّ المراد أعمال البر على بعده؛ لأنه لا يعرض لقاعدته بالنقض، وأنى لهم ذلك وقد أتى الله بنيانهم من القواعد على أنّ التزيين قد ورد في الخير في قوله تعالى: ﴿ولكنّ الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ على أنّ غالب وروده في غير البر كقوله: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ زين للذين كفروا الحياة الدنيا، وكذلك زين لكثير من المشركين، ومما يبعد حمله على أعمال البر إضافة الأعمال إليهم في قوله: أعمالهم، وأعمال البر ليست مضافه إليهم؛ لأنهم لم يعملوها قط، فظاهر الإضافة يعطي ذلك، الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وقوله: ﴿قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان﴾ فأطلق الإيمان في المكانين عن إضافته إليهم؛ لأنه لم يصدر منهم، وأضاف الإسلام الظاهر إليهم؛ لأنه صدر منهم، والله أعلم.

والقبس: النار المقبوسة وأضاف الشهاب إلى القبس؛ لأنه يكون قبسًا وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلاً أو صفة لما فيه من معنى القبس، والخبر ما يخبر به عن حال الطريق؛ لأنه كان قد ضله.

فإن قُلْتَ: ﴿سآتيكم منها بخبر﴾، و﴿لعلّي آتيكم منها بخبر﴾[1] كالمتدافعين؛ لأنّ أحدهما ترج والآخر تيقن! **قُلْتُ:** قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سافعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

فإن قُلْتَ: كيف جاء بسين التسويف؟ **قُلْتُ:** عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة.

فإن قُلْتَ: فلم جاء بـ﴿أو﴾ دون الواو؟ **قُلْتُ:** بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعًا لم يعدم واحدة منهما إمّا هداية الطريق، وإما اقتباس النار ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما أراه حين قال: نلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعًا وهما العزان عز الدنيا وعز الآخرة.

فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾.

﴿أن﴾ هي المفسرة؛ لأنّ النداء فيه، معنى القول: والمعنى قيل: له بورك.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وتقديره ﴿نودي﴾ بأنه بورك، والضمير ضمير الشأن! **قُلْتُ:** لا لأنه لا بدّ من قد.

فإن قُلْتَ: فعلى إضمارها! **قُلْتُ:** لا يصح لأنها علامة لا تحذف، ومعنى **﴿بورك من في النار ومن حولها﴾** بورك من في مكان النار ومن حول مكانها ومكانها البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة﴾[2] وتدل عليه قراءة أبيّ تباركت الأرض ومن حولها، وعنه بوركت النار والذي بوركت له البقعة وبورك من فيها وحواليها حدوث أمر ديني فيها وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له، وإظهار المعجزات عليه وربّ خير يتجدّد في بعض البقاع فينشر الله بركة ذلك الخير في أقاصيها ويبث آثار يمنه في أباعدها، فكيف بمثل نلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة وقيل: المراد بالمبارك فيهم موسى والملائكة الحاضرون، والظاهر أنه عامّ في كل من كان في تلك الأرض وفي نلك الوادي وحواليهما من أرض الشام ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله: ﴿ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾[3] وحقت أن تكون كذلك فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ومهبط الوحي إليهم، وكفاتهم أحياء وأمواتًا.

يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾.

فإن قُلْتَ: فما معنى ابتداء خطاب الله موسى بنلك عند مجيئه؟ **قُلْتُ:** هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة **﴿وسبحان الله رب العالمين﴾** تعجيب لموسى عليه السلام من نلك وإيذان بأنّ نلك الأمر مريده ومكوّنه رب العالمين تنبيهًا على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشؤون. الهاء في **﴿إنه﴾**، يجوز أن يكون ضمير الشأن والشأن **﴿أنا الله﴾** مبتدأ وخبر و**﴿العزيز الحكيم﴾** صفتان للخبر وأن يكون راجعًا إلى ما دل عليه ما قبله يعني: أنّ مكلمك أنا والله بيان؛ لأنا و**﴿العزيز الحكيم﴾** صفتان للمبين، وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القويّ القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتدبير.

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: **﴿وألق عصاك﴾**! **قُلْتُ:** على **﴿بورك﴾**؛ لأنّ المعنى **﴿نودي أن بورك من في النار﴾ ﴿وأن ألق عصاك﴾** كلاهما تفسير لنودي والمعنى قيل له: بورك من في النار وقيل له: ألق عصاك والدليل على نلك قوله تعالى: ﴿وأن ألق عصاك﴾[4] بعد قوله ﴿أن يا موسى إني أنا الله﴾[5] على تكرير حرف التفسير كما تقول: كتبت إليك أن حج وأن اعتمر وإن شئت أن أحج واعتمر، وقرأ الحسن: ﴿جأن﴾ على لغة من يجدّ في الهرب من التقاء الساكنين فيقول: شابة ودابة ومنها قراءة عمرو بن عبيد ولا الضالين **﴿ولم يعقب﴾** لم يرجع يقال: عقب المقاتل إذا كرّ بعد الفرار قال:

فما عقبوا إذ قيل هل من معقب ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا

وإنما رعب لظنه أنّ نلك لأمر أريد به ويدل عليه **﴿إني لا يخاف لديّ المرسلون﴾**، و**﴿إلا﴾** بمعنى لكن؛ لأنه لما أطلق نفي الخوف عن الرسل كأن نلك مظنة لطرو الشبهة فاستدرك نلك.

إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾.

والمعنى: ولكن من ظلم منهم أي: فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء كالذي فرط من آدم ويونس وداود

---

(1) سورة القصص، الآية: 29.
(2) سورة القصص، الآية: 30.
(3) سورة القصص، الآية: 71.
(4) سورة القصص، الآية: 31.
(5) سورة القصص، الآية: 30.

وسليمان، وإخوة يوسف ومن موسى بوكزة القبطي ويوشك أن يقصد بهذا التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها وسماه ظلمًا كما قال موسى: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي. والحسن والسوء حسن التوبة وقبح الذنب وقرئ: ﴿ألا مَن ظُلم﴾ بحرف التنبيه، وعن أبي عمر وفي رواية عصمة حسنًا و﴿في تسع آيات﴾ كلام مستأنف وحرف الجرّ فيه يتعلق بمحذوف، والمعنى: اذهب في تسع آيات ﴿إلى فرعون﴾ ونحوه:

فقلت إلى الطعام فقال: منهم فريق يحسد الإنس الطعاما

ويجوز أن يكون المعنى ﴿وألق عصاك﴾ و﴿ادخل يدك﴾ في تسع آيات أي: في جملة تسع آيات وعدادهنّ ولقائل أن يقول: كانت الآيات إحدى عشرة: ثنتان منها اليد والعصا. والتسع: الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم المبصرة الظاهرة البينة جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأمّليها لأنهم لابسوها، وكانوا بسبب منها بنظرهم وتفكرهم فيها ويجوز أن يراد بحقيقة الإبصار كل ناظر فيها من كافة أولي العقل وأن يراد إبصار فرعون وملئه لقوله: ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾، أو جعلت كأنها تبصر فتهدى لأنّ العمى لا تقدر على الاهتداء فضلاً أن تهدى غيرها ومنه قولهم: كلمة عيناء وكلمة عوراء لأنّ الكلمة الحسنة ترشد والسيئة تغوى ونحوه قوله تعالى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات﴾[1].

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾.

والأرض بصائر فوصفها بالبصارة كما وصفها بالإبصار وقرأ عليّ بن الحسين رضي الله عنهما وقتادة مبصرة وهي نحو مجبنة ومبخلة ومجفرة أي مكانًا يكثر فيه التبصر.

وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾.

الواو في ﴿واستيقنتها﴾ واو الحال وقد بعدها مضمرة والعلو: الكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله تعالى: ﴿فاستكبروا وكانوا قومًا عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾[2] وقرئ: عُليًّا وعِليًّا بالضم والكسر كما قرئ: عُتيًا وعِتيًا، وفائدة ذكر الأنفس أنهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم والاستيقان أبلغ من الإيقان، وقد قوبل بين المبصرة والمبين وأي ظلم أفحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله، ثم كابر بتسميتها سحرًا بينًا مكشوفًا لا شبهة فيه.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾.

﴿علمًا﴾ طائفة من العلم أو علمًا سنيًا غزيرًا[3].

فإن قُلْتَ: أليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك: أعطيته فشكر ومنعته فصبر! قُلْتُ: بلى ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قال: ولقد آتيناهما علمًا فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه، والفضيلة ﴿وقالا الحمد لله الذي فضلنا﴾ والكثير المفضل عليه من لم يؤت علمًا أو من لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلاً على كثير وفضل عليهما كثير وفي الآية دليل على شرف العلم وإناقة محله وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأجزل القسم وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباد الله كما قال: ﴿والذين أوتوا العلم درجات﴾[4] وما سماهم رسول الله ﷺ، ورثة الأنبياء[5] إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة لأنهم القوام بما بعثوا من أجله، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم منها أن يحمدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم وفيها التذكير بالتواضع، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم وما أحسن قول عمر كل الناس أفقه من عمر[5].

وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾.

ورث منه النبوّة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر وكان داود أكثر تعبدًا وسليمان أقضى وأشكر لنعمة الله ﴿وقال يا أيها الناس﴾ تشهيرًا لنعمة الله وتنويهًا بها واعترافًا بمكانها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور والمنطق كل ما يصوت به من

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 102.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 46 ـ 47.

(3) قال أحمد: التبعيض والتقليل من التنكير، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر فكذلك يرد للتعظيم من شأنه، كما مر آنفاً في قوله تعالى: ﴿وإنك لَتُلَقَّى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ ولم يقل: الحكيم العليم، والغرض من التنكير التفخيم، كأنه قال: من لدن حكيم عليم، فظاهر قوله: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتياه، كأنه قال: علماً، أي: علم وهو كذلك، فإن علمهما كان مما يستعظم ويستغرب، ومن ذلك علم = منطق الطير وسائر الحيوانات التي خصهما الله تعالى به، وكل علم بالإضافة إلى علم الله تعالى قليل ضئيل، والله أعلم.

(4) سورة المجادلة، الآية: 11.

(5) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم، (الحديث: 3641)، والترمذي في كتاب: العلم، باب: فضل الفقه على العبادة، (حديث: 2683)، وابن ماجه في المقدمة، (حديث: 223)، وابن حبان في كتاب: العلم (الحديث: 88).

(6) راجع حديث رقم 334، سورة النساء.

المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بإصلاح النطق، وما أصلح فيه إلا مفردات التكلم وقالت العرب: نطقت الحمامة وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته، والذي علمه سليمان من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه، ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرّك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول قالوا: الله ونبيه أعلم قال: يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاوس فقال: يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال يقول: استغفروا الله يا مذنبين. وصاح طيطوى فقال: يقول: كل حي ميت وكل جديد بال. وصاح خطاف فقال: يقول: قدموا خيرًا تجدوه. وصاحت رخمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحدأ يقول: كل شيء هالك إلا الله. والقطاة تقول: من سكت سلم. والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين. والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت. والعقاب يقول: في البعد من الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس. وأراد بقوله: ﴿من كل شيء﴾ كثرة ما أوتي كما تقول: فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء تريد: كثرة قصاده ورجوعه إلى غزارة في العلم واستكثار منه ومثله قوله: وأوتيت من كل شيء ﴿إنّ هذا لهو الفضل المبين﴾ قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1] أي: أقول هذا القول شكرًا ولا أقوله فخرًا.

فإن قُلْتَ: كيف قال: ﴿علمنا﴾ و﴿أوتينا﴾ وهو من كلام المتكبرين؟ **قُلْتُ:** فيه وجهان: أحدهما: أن يريد نفسه وأباه والثاني: أن هذه النون يقال لها: نون الواحد المطاع وكان ملكًا مطاعًا فكلم أهل طاعته على صفته، وحاله التي كان عليها وليس التكبر من لوازم ذلك وقد يتعلق بتجمل الملك وتفخمه وإظهار آبهته وسياسته مصالح فيعود تكلف ذلك واجبًا وقد كان رسول الله ﷺ يفعل نحوًا من ذلك إذا وفد عليه وفد أو احتاج أن يرجح في عين عدوّ ألا ترى كيف أمر العباس رضي الله عنه بأن يحبس أبا سفيان حتى تمرّ عليه الكتائب[2].

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة: خمسة وعشرون للجنّ وخمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجنّ بساطًا من ذهب، وإبريسم فرسخًا في فرسخ وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب، وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس، وحول الناس الجنّ والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض أني قد زدت في ملكك لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال: لقد أوتي آل داود ملكًا عظيمًا فألقته الريح في أذنه فنزل، ومشى إلى الحراث وقال: إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال: لتسبيحة واحدة يقبلها الله خير مما أوتي آل داود ﴿يوزعون﴾ يحبس أولهم على آخرهم أي: توقف سلاف العسكر حتى تلحقهم التوالي فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قيل: هو واد بالشام كثير النمل.

فإن قُلْتَ: لم عدى ﴿أتوا﴾ بـ﴿على﴾؟ **قُلْتُ:** يتوجه على معنيين: أحدهما: أن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء كما قال أبو الطيب:

ولشدة ما قربت عليك الأنجم

لما كان قربًا من فوق. والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم: أتي على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطمهم، وقرئ: ﴿نملة يا أيها النمل﴾ بضم الميم وبضم النون والميم وكان الأصل النمل بوزن الرجل والنمل الذي عليه الاستعمال تخفيف عنه كقولهم: السبع في السبع قيل: كانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس فنادت: ﴿يا أيها النمل﴾ الآية فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال، وقيل: كان اسمها طاخية وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرًا، وهو غلام حدث فقال: سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرًا أم أنثى فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل له: من أين عرفت؟ قال: من كتاب الله وهو قوله: ﴿قالت نملة﴾ ولو كانت ذكرًا لقال قال: نملة[3] وذلك أنّ النملة مثل الحمامة

---

(1) تقدم في سورة يوسف، الحديث رقم 212.

(2) أخرجه البخاري في المغازي، في كتاب: أين ركز النبي ﷺ، (الحديث: 4280).

(3) قال أحمد: لا أدري العجب منه أم من أبي حنيفة أن يثبت ذلك عنه، وذلك أنّ النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى؛ = لأنه اسم جنس يقال: نملة ذكر ونملة أنثى، كما يقولون: حمامة ذكر وحمامة أنثى، وشاة ذكر وشاة أنثى، فلفظها مؤنث، ومعناه محتمل فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها، وإن كانت واقعة على ذكر، بل هذا هو الفصيح المستعمل ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تضحى بعوراء ولا عجفاء ولا عمياء» كيف أخرج=

والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم: حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي. وقرئ: مسكنكم، ولا يحطمنكم بتخفيف النون وقرئ: ﴿لا يحطمنكم﴾ بفتح الحاء وكسرها وأصله يحتطمنكم. ولما جعلها قائلة والنمل مقولاً لهم كما يكون في أولى العقل أجرى خطابهم مجرى خطابهم.

فإن قُلْتَ: ﴿لا يحطمنكم﴾ ما هو! **قُلْتُ:** يحتمل أن يكون جواباً للأمر وأن يكون نهيًا بدلاً من الأمر، والذي جوز أن يكون بدلاً منه أنه في معنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم على طريقة لا أرينك ههنا أراد ﴿لا يحطمنكم﴾ جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ، ونحوه عجبت من نفسي ومن إشفاقها.

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾.

ومعنى ﴿فتبسم ضاحكًا﴾: تبسم شارعًا في الضحك وآخذًا فيه يعني: أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام وأما ما روي أن رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[1] فالغرض المبالغة في وصف ما وجد منه من الضحك النبوي وإلا فبدوّ النواجذ على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب وقرأ ابن السميفع: ضحكًا.

فإن قُلْتَ: ما أضحكه من قولها! **قُلْتُ:** شيآن: إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وعلى شهرة حاله، وحالهم في باب التقوى وذلك قولها: ﴿وهم لا يشعرون﴾ تعني: أنهم لو شعروا لم يفعلوا وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدًا من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الحكل الذي هو مثل في الصغر، والقلة ومن إحاطته بمعناه ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك، وعلى استيفاقه لزيادة العمل الصالح والتقوى[2]، وحقيقة أوزعني: اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وأكفه، وأرتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكرًا لك وإنما أدرج ذكر والديه لأنّ النعمة على الولد نعمة على الوالدين خصوصًا النعمة الراجعة إلى الدين، فإنه إذا كان تقيًا نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له وقالوا: رضي الله عنك وعن والديك، وروي أنّ النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهنّ، ثم دعا بالدعوة[3]. ومعنى ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ واجعلني من أهل الجنة.

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾.

أم هي المنقطعة نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال: ﴿مالي لا أرى﴾ على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره، أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فاضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له ونحوه قولهم: إنها لإبل أم شاء، وذكر من قصة الهدهد أنّ سليمان حين تمّ له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ما شاء[4]، وكان يقرّب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير إلى اليمن، فخرج من مكة صباحاً يؤمّ سهيلاً فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضًا حسناء أعجبته خضرتها، فنزل ليتغدّى ويصلي فلم يجدوا الماء وكان الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة[5]، فيجيء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الإهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهدًا واقعًا فانحط إليه، فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء ونكر له صاحبه ملك بلقيس[6]، وأنّ تحت يدها اثني عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان، فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: عليّ به فارتفعت فنظرت، فإذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله وقال: بحق الله الذي قوّاك وأقدرك عليّ إلا رحمتيني، فتركته وقالت: ثكلتك

= هذه الصفات على اللفظ مؤنثة، ولا يعني الإناث من الأنعام خاصة، فحينئذٍ قوله تعالى: ﴿قالت نملة﴾ روعيَ فيه تانيث اللفظ وأما المعنى، فيحتمل على حد سواء، وإنما أطلت في هذا، وإن كان لا يتمشى عليه حكم؛ لأنه نسبه إلى الإمام أبي حنيفة على بصيرته باللغة، ثم جعل هذ الجواب معجباً لنعمان على غزارة علمه وتبصره بالمنقولات، ثم قرر الكلام على ما هو عليه مصوناً له فياالله العجب العجاب، والله الموفق للصواب.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير ومن سورة الزمر، باب: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (الحديث رقم: 4811)، أخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: صفة القيامة، والجنة والنار، (الحديث رقم: 20 ـ 2786).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، = (الحديث رقم: 657)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: آخر أهل النار خروجًا، (الحديث رقم: 308 ـ 186).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يقبض الله.. (الحديث رقم: 6520).

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً... (الحديث رقم: 29 ـ 1478).

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد وغيرها، (الحديث رقم: 132 ـ 1807).

(6) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: من قال بالقرعة إذا تنازعوا في الولد (الحديث رقم: 2269)، والحاكم في المستدرك 2/ 207.

أمّك إنّ نبيّ الله قد حلف ليعذبنك قال: وما استثنى قالت: بلى قال: ولياتيني بعذر مبين[1]، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرّها على الأرض تواضعًا له فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه فقال: يا نبيّ الله انكر وقوفك بين يدي الله، فارتعد سليمان وعفا عنه ثم سأله.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

تعذيبه أن يؤنّب بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه، وقيل: كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه وقيل: أن يطلي بالقطران ويشمس وقيل: أن يلقى للنمل تأكله وقيل: إيداعه القفص، وقيل: التفريق بينه وبين ألفه وقيل: لألزمنه صحبة الأضداد، وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد، وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه.

فإن قُلْتَ: من أين حلّ له تعذيب الهدهد؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يبيح له الله ذلك لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة، كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخّر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة جاز أن تباح له ما يستصلح به، وقرئ ليأتينني وليأتينن. والسلطان الحجة والعذر.

فإن قُلْتَ: قد حلف على أحد ثلاثة أشياء فحلفه على فعليه لا مقال فيه ولكن كيف صحّ حلفه على فعل الهدهد، ومن أين درى أنه يأتي بسلطان حتى يقول: **﴿أو لياتيني بسلطان﴾**! **قُلْتُ:** لما نظم الثلاثة بأو في الحكم الذي هو الحلف آل كلامه إلى قولك ليكوننّ أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما وليس في هذا ادّعاء دراية على أنّه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحي من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين فثلث بقوله: **﴿أو لياتيني بسلطان مبين﴾** عن دراية وإيقان.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فمكث﴾ قرئ بفتح الكاف وضمها **﴿غير بعيد﴾** غير زمان بعيد كقوله: عن قريب ووصف مكثه بقصر المدّة للدلالة على إسراعه خوفًا من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرًا له ولبيان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوّته وعلى قدرة الله تعالى **﴿أحطت﴾** بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه، وتنبيهًا على أنّ في أدنى خلقه وأضعفه من أحاد. علمًا بما لم يحط به لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه ويكون لطفًا له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة والإحاطة بالشيء علمًا أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم قالوا: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة أنّ الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه. سبأ قرئ بالصرف ومنعه وقد روي بسكون الباء، وعن ابن كثير في رواية سبأ بالألف كقولهم: ذهبوا أيدي سبا وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فمن جعله اسمًا للقبيلة لم يصرف ومن جعله اسمًا للحي أو الأب الأكبر صرف قال:

من سبا الحاضرين مأرب إذ ... يبنون من دون سيله العرما

وقال:

الواردون وتيم في ذرى سبأ ... قد عض أعناقهم جلد الجواميس

ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث كما سميت معافر بمعافر بن أدّ، ويحتمل أن يراد المدينة والقوم. والنبأ الخبر الذي له شأن. وقوله: **﴿من سبإٍ بنبإٍ﴾** من جنس الكلام الذي سماه المحدّثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعًا أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده ولقد جاء ههنا زائدًا على الصحة فحسن وبدع لفظًا، ومعنى ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبإٍ بخبر لكان المعنى صحيحًا وهو كما جاء أصح لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

المرأة بلقيس بنت شراحيل وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها وقد ولده أربعون ملكًا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك، وكانت هي وقومها مجوسًا يعبدون الشمس والضمير في **﴿تملكهم﴾** راجع إلى سبأ فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر وإن أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها، وقيل في وصف عرشها: كان ثمانين ذراعًا في ثمانين وسمكه ثمانين وقيل: ثلاثين مكان ثمانين وكان من ذهب وفضة مكللها بأنواع الجواهر وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودرّ وزمرّد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق.

فإن قُلْتَ: كيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش، ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء كما يكون لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون مثله للملك الذي يملك عليهم أمرهم، ويستخدمهم ومن نوكى القصاص من يقف على قوله: ولها عرش ثم يبتدئ عظيم.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وجدتها﴾: يريد أمر عظيم أن وجدتها وقومها

(1) الحاكم في المستدرك 4/63.

يسجدون للشمس، فر من استعظام الهدهد عرشها فوقع في عظيمة وهي مسخ كتاب الله.

فإن قُلْتَ: كيف قال ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ مع قول سليمان، وأوتينا من كل شيء كأنه سوّى بينهما؟ **قُلْتُ**: بينهما فرق بيِّن؛ لأن سليمان عليه السلام عطف قوله: على ما هو معجزة من الله وهو تعليم منطق الطير فرجع أوّلاً إلى ما أوتي من النبوّة والحكمة وأسباب الدين، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبيّن الكلامين بون بعيد.

فإن قُلْتَ: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة وهي مسيرة ثلاث بين صنعاء ومارب؟ **قُلْتُ**: لعل الله عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب.

فإن قُلْتَ: من أين للهدهد التهدي إلى معرفة الله، ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟ **قُلْتُ**: لا يبعد أن يلهمه الله ذلك كما ألهمه، وغيره من الطير وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان خصوصًا في زمن نبي سخرت له الطيور وعلم منطقها وجعل ذلك معجزة له، من قرأ بالتشديد أراد فصدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا، فحذف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة ويكون المعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا ومن قرأ بالتخفيف فهو وألا يسجدوا إلا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف كما حذفه مَن قال:

ألا يا أسلمي يا دارميّ على البلى

وفي حرف عبد الله وهي قراءة الأعمش هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى: ألا تسجدون على الخطاب.

أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾.

وفي قراءة أبيّ: ﴿ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون﴾ وسمى المخبوء بالمصدر وهو النبات، والمطر وغيرهما مما خباه عز وعلا من غيوبه وقرئ الخب على تخفيف الهمزة بالحذف والخبا على تخفيفها بالقلب، وهي قراءة ابن مسعود ومالك بن دينار ووجهها أن تخرج على لغة من يقول في الوقف هذا الخبو ورأيت الخبا ومررت بالخبى، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف لا على لغة من يقول: الكماة والحماة؛ لأنها ضعيفة مسترذلة وقرئ يخفون ويعلنون بالياء والتاء وقيل: من أحطت إلى العظيم هو كلام الهدهد وقيل: كلام رب العزة وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد تخفي على ذي الفراسة النظار بنور الله مخائل كل مختص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله ولهذا ورد ما عمل عبد عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله.

فإن قُلْتَ: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعًا؛ أم في إحداهما؟ **قُلْتُ**: هي واجبة فيهما جميعًا لأنّ مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمرًا بالسجود والأخرى ذم للتارك، وقد اتفق أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله على أنّ سجدات القرآن أربع عشر وإنما اختلفا في سجدة ص فهي عند أبي حنيفة سجدة تلاوة، وعند الشافعي سجدة شكر وفي سجدتي سورة الحج وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه.

فإن قُلْتَ: هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ **قُلْتُ**: نعم إذا خفف وقف على فهم لا يهتدون، ثم ابتدأ ألا يسجدوا، وإن شاء وقف على ألا يأتم ابتدأ اسجدوا وإذا شدّد لم يقف إلا على العرش العظيم.

فإن قُلْتَ: كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظم؟ **قُلْتُ**: بين الوصفين بون عظيم؛ لأنّ وصف عرشها بالعظيم، تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾.

ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض، وقرئ: ﴿العظيم﴾ بالرفع.

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾.

﴿سننظر﴾ من النظر الذي هو التأمل والتصفح. وأراد: أصدقت أم كذبت، إلا أن ﴿كنت من الكاذبين﴾[1] أبلغ؛ لأنه إذا كان معروفًا بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذبًا لا محالة وإذا كان كاذبًا اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به.

ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿تول عنهم﴾ تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك و﴿يرجعون﴾ من قوله تعالى: ﴿يرجع بعضهم إلى بعض﴾[2] القول فيقال: دخل عليها من كوة فألقى الكتاب إليها وتوارى في الكوة.

---

(1) قال أحمد: وهذا مما نبّهت عليه في سورة الشعراء من العدول عن الفعل الذي هو أم كنبت، وعن مجرد صفته في قوله: أم كنت كاذباً إلى جعله واحداً من الفئة الموسومة بالكنب، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد، والله أعلم.

(2) سورة سبأ، الآية: 31.

فإن قُلْتَ: لم قال:﴿**فألقه إليهم**﴾ على لفظ الجمع﴿**قُلْتُ:**﴾ لأنه قال: وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال: فألقه إلى الذين هذا دينهم اهتمامًا منه بأمر الدين واشتغالاً به عن غيره وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾.

﴿**كريم**﴾ حسن مضمونه، وما فيه أو وصفته بالكرم لأنه من عند ملك كريم أو مختوم قال ﷺ: «كرم الكتاب ختمه»[1]، وكان ﷺ يكتب إلى العجم فقيل له أنهم لا يقبلون إلا كتابًا عليه خاتم فاصطنع خاتمًا[2]، وعن ابن المقفع: من كتب إلى أخيه كتابًا ولم يختمه فقد استخف به.

إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾.

وقيل: مصدر ببسم الله الرحمٰن الرحيم هو استئناف، وتبيّن لما ألقى إليها كانها لما قالت:﴿**إني ألقى إليّ كتاب كريم**﴾ قيل لها: ممن هو وما هو فقالت: إنه من سليمان وإنه كيت وكيت، وقرأ عبد الله: وإنه من سليمان وإنه عطفًا على إني وقرئ: إنه من سليمان وأنه بالفتح على أنه بدل من كتاب كأنه قيل: ألقى إلى أنه من سليمان، ويجوز أن تريد: لأنه من سليمان ولأنه كانها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره باسم الله وقرأ أبيّ: أن من سليمان، وأن بسم الله على أن المفسرة.

أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾.

وأن في﴿**ألا تعلوا**﴾ مفسرة أيضًا، لا تعلوا: لا تتكبروا كما يفعل الملوك، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالغين معجمة من الغلو وهو: مجاوزة الحد يروى أنّ نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا عليّ وائتوني مسلمين، وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملاً لا يطيلون ولا يكثرون، وطبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه فوجدها الهدهد راقدة في قصرها بمأرب، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وقيل: نقرها فانتبهت فزعة وقيل: أتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميري فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت وقالت لقومها ما قالت،﴿**مسلمين**﴾ منقادين أو مؤمنين.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾.

الفتوى: الجواب في الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتا في السن والمراد بالفتوى ههنا الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأي والتدبير وقصدت بالانقطاع إليهم، والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم استعطافهم وتطييب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها﴿**قاطعة أمرًا**﴾ فاصلة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: قاضية أي: لابت أمرًا إلا بمحضركم وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل واحد على عشرة آلاف.

قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾.

أرادوا بالقوة: قوّة الأجساد وقوّة الآلات والعدد، وبالبأس: النجدة والبلاء في الحرب﴿**والأمر إليك**﴾ أي: هو موكول إليك ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك، كانهم أشاروا عليها بالقتال أو أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة وأنت ذات الرأي والتدبير فانظري ماذا ترين نتبع رأيك، لما أحست منهم الميل إلى المحاربة رأت من الرأي الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن ورتبت الجواب فزيفت أولاً ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه.

قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾.

بـ﴿**إن الملوك إذا دخلوا قرية**﴾ عنوة وقهرًا﴿**أفسدوها**﴾ أي: خرّبوها ومن ثمة قالوا للفساد: الخربة، وأذلوا أعزتها وأهانوا أشرافها وقتلوا وأسروا فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ثم قالت:﴿**وكذلك يفعلون**﴾ أرادت وهذه عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير؛ لأنها كانت في بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك ورأت ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأي السديد وقيل: هو تصديق من الله لقولها، وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم، ومن استباح حرامًا فقد كفر فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين.

وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿**مرسلة إليهم بهدية**﴾ أي: مرسلة رسلاً بهدية أصانعه بها عن ملكي﴿**فناظرة**﴾ ما يكون منه حتى أعمل على حسب ذلك فروى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهن الأساور والأطواق والقرطة راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجًا مكللاً بالدرّ

---

(1) ذكره الواحدي في تفسيره والثعلبي والقضاعي والطبراني في الأوسط، زيلعي 3/16.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: دعوة اليهود والنصارى= = وعلى ما يقاتلون عليه (الحديث رقم: 2938)، ومسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: اتخاذ النبي ﷺ خاتمًا لما أراد أن يكتب إلى العجم.

والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقًا فيه درّة عذراء وجزعة معوجة الثقب، وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر بن عمرو وآخر ذا رأي وعقل وقال: إن كان نبيًا ميّز بين الغلمان والجواري وثقب الدرّة ثقبًا مستويًا وسلك في الخرزة خيطًا، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك وإن رأيته بشًا لطيفًا فهو نبي فأقبل الهدهد فأخبر سليمان، فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطًا شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير، فأقاموا عن اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسي من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفًا فراسخ والإنس صفوفًا فراسخ والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك، فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال: ما وراءكم وقال: أين الحقّ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه فقال لهم: إن فيه كذا وكذا ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها، فجعل رزقها في الشجرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها فجعل رزقها في الفواكه ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها، فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وقال للمنذر: ارجع إليهم، فقالت: هو نبي وما لنا به طاقة فشخصت إليه في اثني عشر ألف قيل، تحت كل قيل ألوف.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾.

وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: فلما جاؤوا **﴿أتمدونني﴾** وقرئ بحذف الياء والاكتفاء بالكسرة وبالادغام كقوله: أتحاجوني وبنون واحدة أتمدوني، الهدية اسم المهدي كما أن العطية اسم المعطي فتضاف إلى المهدي والمهدي إليه تقول هذه هدية فلان تريد: هي التي أهداها أو أهديت إليه والمضاف إليه ههنا هو المهدي إليه والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم وذلك أن الله آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه فكيف يرضى مثلي بأن يمدّ بمال ويصانع به **﴿بل أنتم﴾** قوم لا تعلمون إلاّ ظاهرًا من الحياة الدنيا، فلذلك **﴿تفرحون﴾** بما تزادون ويهدي إليكم؛ لأنّ ذلك مبلغ همتكم وحالي خلاف حالكم وما أرضى منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين قولك أتمدني بمال وأنا أغنى منك وبين أن تقوله بالفاء؟ **قُلْتُ:** إذا قلته بالواو فقد جعلت مخاطبي عالمًا بزيادتي عليه في الغنى واليسار، وهو مع ذلك يمدني بالمال وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده، كأني أقول له: أنكر عليك ما فعلت فإني غني عنه وعليه ورد قوله فما آتاني الله.

فإن قُلْتَ: فما وجه الإضراب؟ **قُلْتُ:** لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه وهو: أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح، إلا أن يهدى إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدي ويكون المعنى: بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك بأنكم قدرتم على إهداء مثلها، ويحتمل أن يكون عبارة عن الردّ كأنه قال: بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها.

ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿ارجع﴾ خطاب للرسول وقيل: للهدهد محملاً كتابًا آخر **﴿لا قبل﴾** لا طاقة وحقيقة القبل: المقاومة والمقابلة أي: لا يقدرون أن يقابلوهم وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: لا قبل لهم بهم، الضمير في منها لسبأ. والذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك. والصغار: أن يقعوا في أسر واستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكًا.

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾.

يروى أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان عليه السلام، فجعل عرشها في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض في آخر قصر من قصور سبعة لها وغلقت الأبواب ووكلت به حرسًا يحفظونه، ولعله أوحي إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده مع اطلاعها على عظيم قدرة الله وعلى ما يشهد لنبوّة سليمان عليه السلام ويصدقها، وعن قتادة: أن يأخذه قبل أن تسلم لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها وقيل: أراد أن يؤتى به فينكر ويغير، ثم ينظر أتثبته أم تنكره اختبارًا لعقلها.

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾.

وقرئ عفرية والعفر والعفريت والعفرية والعفراة والعفارية من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه ومن الشياطين الخبيث المارد وقالوا: كان اسمه ذكوان **﴿لقوي﴾** على حمله **﴿أمين﴾** أتى به كما هو لا أختزل منه شيئًا ولا أبدله.

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾.

﴿الذي عنده علم من الكتاب﴾ رجل كان عنده اسم الله

الأعظم وهو: يا حي يا قيوم وقيل: يا إلهنا وإلّه كل شيء إلهاً واحدًا لا إلّه إلاّ أنت وقيل: يا ذا الجلال والإكرام وعن الحسن رضي الله عنه: والرحمن، وقيل: هو آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام وكان صديقًا عالمًا وقيل: اسمه أسطوم وقيل: هو جبريل وقيل: ملك أيد الله به سليمان، وقيل: هو سليمان نفسه كأنه استبطأ العفريت فقال له: أنا أريك ما هو أسرع مما تقول عن ابن لهيعة: بلغني أنه الخضر عليه السلام، **﴿علم من الكتاب﴾** من الكتاب المنزل وهو: علم الوحي والشرائع وقيل: هو اللوح والذي عنده علم منه جبريل عليه السلام، **﴿وآتيك﴾** في الموضعين يجوز أن يكون فعلاً واسم فاعل. الطرف: تحريك أجفانك إذا نظرت فوضع موضع النظر ولما كان الناظر موصوفًا بإرسال الطرف في نحو قوله:

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا أتعبتك المناظر

وصف برد الطرف ووصف الطرف بالارتداد، ومعنى قوله: **﴿قبل أن يرتد إليك طرفك﴾** أنك ترسل طرفك إلى شيء فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك، ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام: مد عينيك حتى ينتهي طرفك فمدّ عينيه فنظر نحو اليمن، ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ثم نبع عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدرة الله قبل أن يردّ طرفه، ويجوز أن يكون هذا مثلاً لاستقصار مدّة المجيء به كما تقول لصاحبك: أفعل كذا في لحظة، وفي ردّة طرف والتفت ترني وما أشبه ذلك تريد السرعة **﴿يشكر لنفسه﴾** لأنه يحط به عنها عبء الواجب، ويصونها عن سمة الكفران وترتبط به النعمة ويستمد المزيد، وقيل: الشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة وفي كلام بعض المتقدمين أن كفران النعمة بوار وقلما أقشعت نافرة فرجعت في نصابها، فاستدع شاردها بالشكر واستدم راهنها بكرم الجوار واعلم أن سبوغ ستر الله متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقارًا **﴿غني﴾** عن الشكر **﴿كريم﴾** بالإنعام على من يكفر نعمته، والذي قاله سليمان عليه السلام عند رؤية العرش شاكرًا لربه جرى على شاكلة أبناء جنسه من أنبياء الله والمخلصين من عباده يتلقون النعمة القادمة بحسن الشكر كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر.

قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾.

﴿نكروا﴾ اجعلوه متنكرًا متغيرًا عن هيئته وشكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه، قالوا: وسعوه وجعلوا مقدمه مؤخره وأعلاه أسفله. وقرئ: **﴿ننظر﴾** بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف **﴿أتهتدي﴾** لمعرفته، أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه أو للدين والإيمان بنبوّة سليمان عليه السلام إذا رأت تلك المعجزة البيّنة من تقدم عرشها، وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحرس، هكذا ثلاث كلمات: حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الإشارة.

فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾.

لم يقل: أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا فـ **﴿قالت كأنه هو﴾**، ولم نقل هو هو ولا ليس به وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل[1].

﴿وأوتينا العلم﴾ من كلام سليمان وملئه.

فإن قُلْتَ: علام عطف هذا الكلام وبم اتصل! **قُلْتُ:** لما كان المقام الذي سئلت فيه عن عرشها وأجابت بما أجابت به مقامًا أجرى فيه سليمان وملؤه ما يناسب قولهم: **﴿وأوتينا العلم﴾** نحو أن يقولوا عند قولها **﴿كأنه هو﴾**: قد أصابت في جوابها، وطبقت المفصل وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام وعلمت قدرة الله وصحة النبوّة بالآيات التي تقدّمت عند وفدة المنذر، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها، ولم نزل على دين الإسلام شكر الله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها.

وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾.

﴿وصدها﴾ عن التقدّم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهراني الكفرة ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولاً بقولها: كأنه هو والمعنى: وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوّة سليمان عليه السلام قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة تعني: ما تبيّنت من الآيات عند وفدة المنذر ودخلنا في الإسلام، ثم قال الله تعالى: **﴿وصدها﴾** قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل وقيل: وصدّها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرئ: أنها بالفتح على أنه بدل من فاعل صدّ أو بمعنى: لأنها.

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ

---

(1) قال أحمد: وفي قولها: كأنه هو عدو لها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول هكذا هو نكتة حسنة، ولعل قائلاً يقول: كلا العبارتين تشبيه إذ كاف التشبيه فيهما جميعاً، وإن كانت في إحداهما داخلة على اسم الإشارة، وفي الأخرى داخلة على المضمر، وكلاهما أعني اسم الإشارة والمضمر واقع على الذات المشبهة، وحينئذ تستوي العبارتان في المعنى، ويفضل قولها هكذا هو بمطابقته للسؤال، فلا بد في اختيار كأنه هو من حكمة،= فنقول: حكمته، والله أعلم. أن كأنه هو عبارة عن قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو، وتلك حال بلقيس، وأما هكذا هو فعبارة جازم بتغاير الأمرين حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها، والله أعلم. وقول الزمخشري: ولا ليس بهو إن كان من قوله فوهم، والصواب: ولا ليس به، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾.

﴿الصرح﴾ القصر وقيل: صحن الدار. وقرأ ابن كثير: ساقيها بالهمز ووجهه أنه سمع سؤقًا، فاجرى عليه الواحد. والممرد: المملس وروي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجنّ والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظامًا لأمره وتحققًا لنبوّته وثباتًا على الدين وزعموا أنّ الجنّ كرهوا أن يتزوّجها، فتفضي إليه بأسرارهم: لأنها كانت بنت جنيّة وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد تجتمع له فطنة الجنّ والإنس، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشدّ وأفظع فقالوا له: إن في عقلها شيئًا وهي شعراء الساقين ورجلها كحافرا الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرّف ساقها ورجلها فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقًا وقدمًا لا أنها شعراء، ثم صرف بصره وناداها ﴿إنّه صرح ممرد من قوارير﴾ وقيل: هي السبب في اتخاذ النورة أمر بها الشياطين، فاتخذوها واستنكحها سليمان عليه السلام وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجنّ فبنوا لها سيلحين وغمدان، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له وقيل: بل زوجها ذا تبع ملك همدان وسلطه على اليمن وأمر زوبعة أمير جنّ اليمن أن يضيعه فبنى له المصانع ولم يزل أميرًا حتى مات سليمان ﴿ظلمت نفسي﴾ تريد: بكفرها فيما تقدّم، وقيل: حسبت أنّ سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة فقالت: ظلمت نفسي بسوء ظني بسليمان عليه السلام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾.

وقرئ: ﴿أن اعبدوا﴾ بالضم على اتباع النون الياء ﴿فريقان﴾ فريق مؤمن وفريق كافر وقيل: أريد بالفريقين صالح عليه السلام، وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد ﴿يختصمون﴾ يقول كل فريق: الحق معي.

قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿السيئة﴾ العقوبة و﴿الحسنة﴾ التوبة.

فإن قُلْتَ: ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى؟ **قُلْتُ:** كانوا يقولون لجهلهم: إنّ العقوبة التي يعدّها صالح عليه السلام إن وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا مقدّرين أنّ التوبة مقبولة في ذلك الوقت، وإن لم تقع فنحن على ما نحن عليه فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب قولهم واعتقادهم. ثم قال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب ﴿لعلكم ترحمون﴾ تنبيهاً لهم على الخطأ فيما قالوه وتجهيلاً فيما اعتقدوه.

قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾.

وكان الرجل يخرج مسافرًا فيمر بطائر فيزجره فإن مر سانحًا تيمن وإن مر بارحًا تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة ومنا قالوا: طائر الله لا طائرك أي: قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر، لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن فلما قالوا: اطيرنا بكم أي: تشاءمنا، وكانوا قد قحطوا ﴿قال طائركم عند الله﴾ أي: سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم، ويجوز أن يريد: عملكم مكتوب عند الله فمنه نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة ومنه قوله: ﴿طائركم معكم﴾[1] وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه، وقرئ: تطيرنا بكم على الأصل ومعنى تطير به: تشاءم به، وتطير منه: نفر منه ﴿تفتنون﴾ تختبرون أو تعذبون، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة.

وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿المدينة﴾ الحجر. وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة فكأنه قيل: تسعة أنفس والفرق بين الرهط والنفر أنّ الرهط من الثلاثة إلى العشرة أو من السبعة إلى العشرة والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماؤهم عن وهب الهذيل بن عبد رب غنم بن غنم رباب بن مهرج مصدع بن مهرج عمير بن كردبة عاصم بن مخرمة سبيط بن صدقة سمعان بن صفي قدار بن سالف وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاة قوم صالح عليه السلام وكانوا من أبناء أشرافهم ﴿ولا يصلحون﴾ يعني: أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح.

قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿تقاسموا﴾ يحتمل أن يكون أمرًا وخبرًا في محل الحال بإضمار قد أي: قالوا متقاسمين وقرئ: تقاسموا، وقرئ: لتبيتنه بالتاء والياء والنون فتقاسموا مع النون والتاء يصح فيه الوجهان ومع الياء لا يصح إلا أن يكون خبرًا والتقاسم والتقسم كالتظاهر والتظهر التحالف والبيات

(1) سورة يس، الآية: 19.

مباغتة العدوّ ليلاً وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات، فقال: ليس من آيين الملوك استراق الظفر. وقرئ: ﴿مهلك﴾ بفتح الميم واللام وكسرها من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك ويحتمل المصدر والزمان والمكان.

فإن قُلْتَ: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟ **قُلْتُ:** كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحًا وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين، ثم قالوا: ﴿ما شهدنا مهلك أهله﴾ فنكروا أحدهما كانوا صادقين لأنهم فعلوا البياتين جميعًا لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أنّ الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبيّ الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سوّوا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب.

وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾.

مكرهم: ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روي أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا: زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعنب الله كلا منهم في مكانه ونجّى صالحًا ومن معه وقيل: جاءوا بالليل شاهري سيوفهم، وقد أرسل الله الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الحجارة ولا يرون راميًا.

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾.

﴿أنا دمّرناهم﴾ استئناف، ومن قرأ بالفتح رفعه بدلاً من العاقبة أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هي تدميرهم أو نصبه على معنى لأنا أو على أنه خبر كان أي: كان عاقبة مكرهم الدمار.

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿خاوية﴾ حال عمل فيها ما دلّ عليه تلك وقرأ عيسى بن عمر: ﴿خاوية﴾ بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿و﴾ انكر ﴿لوطًا﴾ أو أرسلنا لوطًا لدلالة ولقد أرسلنا عليه، و﴿إذ﴾ بدل على الأوّل ظرف على الثاني ﴿وأنتم تبصرون﴾ من بصر القلب أي: تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها، وأن الله إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ولا الأنثى للأنثى فهي مضادة لله في حكمته وحكمه وعلمكم بذلك أعظم لذنوبكم وأدخل في القبح والسماجة وفيه دليل على أن القبيح من الله أقبح منه من عباده؛ لأنه أعلم العالمين، وأحكم الحاكمين أو تبصرونها بعضكم من بعض لأنهم كانوا في باديتهم يرتكبونها معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة، وإنهماكًا في المعصية، وكان أبا نواس بنى على مذهبهم قوله:

وبح باسم ماتأتي وذرني من الكنى ... فلا خير في اللذات من دونها ستر

أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما تزل بهم.

فإن قُلْتَ: فسرت ﴿تبصرون﴾ بالعلم وبعده.

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ فكيف يكونون علماء جهلاء؟ **قُلْتَ:** أراد: تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك، أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها.

فإن قُلْتَ: ﴿تجهلون﴾ صفة لقوم والموصوف لفظه لفظ الغائب، فهلا طابقت الصفة الموصوف فقرئ بالياء دون التاء وكذلك بل أنتم قوم تفتنون! **قُلْتُ:** اجتمعت الغيبة والمخاطبة، فغلبت المخاطبة؛ لأنها أقوى وأرسخ أصلاً من الغيبة.

❁ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾.

وقرأ الأعمش جواب قومه بالرفع والمشهورة أحسن. ﴿يتطهرون﴾ يتنزهون عن القاذورات كلها، فينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا إنكارهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو استهزاء.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿قدّرناها﴾ قدّرنا كونها ﴿من الغابرين﴾ كقوله: قدّرنا إنها لمن الغابرين فالتقدير واقع على الغبور في المعنى.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾.

أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء، وحكمته وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده وفيه تعليم حسن وتوقيف على أدب جميل وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ، كابرًا عن كابر. هذا الأدب الأدب فحمدوا الله عزّ وجل وصلوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وتذكرة وفي مفتتح كل خطبة وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن وقيل: هو متصل بما

قبله وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام، وأشياعهم الناجين وقيل: هو خطاب للوط عليه السلام وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت[1] وتهكم بحالهم ونلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله، ولا يؤثر عاقل شيئًا على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة فقيل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه وإنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى، وعبثًا لينبهوا على الخطأ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول وليعلموا إنّ الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد، ونحوه ما حكاه عن فرعون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجرى تحته.

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي تعي آثار رحمته وفضله كما عدّدها في موضع آخر ثم قال: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء، وقرئ يشركون بالياء والتاء، وعن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قرأها يقول: بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم[2].

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين أم وأم في أم ما تشركون وأمّن خلق؟ **قُلْتُ:** تلك متصلة؛ لأنّ المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة لما قال الله تعالى: ﴿آلله خير أم الآلهة﴾.

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾.

قال: بل أمّن خلق السموات والأرض خير تقريرًا لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء، وقرأ الأعمش: ﴿أمن﴾ بالتخفيف ووجهه أن يجعل بدلاً من الله كأنه قال: أمّن خلق السموات والأرض خير أم ما تشركون.

فإن قُلْتَ: أي نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا؟ **قُلْتُ:** تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته والإيذان بأنّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ ومعنى الكينونة: الانبغاء أراد: أن تأتي نلك محال من غيره وكنلك قوله: بل هم بعد الخطاب أبلغ في تخطئة رأيهم، والحديقة: البستان عليه حائط من الإحداق وهو: الإحاطة وقيل: ذات لأنّ المعنى: جماعة حدائق ذات بهجة كما يقال: النساء ذهبت والبهجة الحسن لأنّ الناظر يبتهج به ﴿أإله مع الله﴾ أغيره يقرن به ويجعل شريكًا له، وقرئ أإلهًا مع الله بمعنى أتدعون أو أتشركون ولك أن تحقق الهمزتين وتوسط بينهما مدّة وتخرج الثانية بين بين ﴿يعدلون﴾ به غيره، أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد.

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾.

﴿أمن جعل﴾ وما بعده بدل من ﴿أمن خلق﴾ فكان حكمهما حكمه ﴿قرارًا﴾ دحاها وسواها للاستقرار عليها ﴿حاجزًا﴾ كقوله: برزخًا.

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾.

الضرورة: الحالة المحوجة إلى اللجا والاضطرار: افتعال منها يقال: اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر والمضطر: الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجا والتضرع إلى الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو المجهود، وعن السدّى: الذي لا حول له ولا قوّة وقيل: المذنب إذا استغفر.

فإن قُلْتَ: قد عم المضطرين بقوله: يجيب المضطر إذا دعاه وكم من مضطر يدعوه فلا يجاب؟ **قُلْتُ:** الإجابة موقوفة على أن يكون المدعوّ به مصلحة، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطًا فيه المصلحة[3] وأما المضطر فمتناول للجنس مطلقًا يصلح لكله ولبعضه فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا بدليل وقد قام الدليل على البعض وهو الذي أجابته مصلحة فبطل التناول على العموم ﴿خلفاء الأرض﴾ خلفاء فيها ونلك توارثهم سكناها، والتصرف فيها قرنًا بعد قرن أو أراد بالخلافة الملك والتسلط، وقرئ يذكرون بالياء مع الإدغام، وبالتاء مع الإدغام والحذف وما مزيدة أي: يذكرون تذكرًا قليلاً والمعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي.

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا

---

(1) قال أحمد: كلام مرضي بعد أن تضع خالق كل شيء مكان قوله: خالق كل خير، فإنه تخصيص قدري أو إشراك خفي، والتوحيد الأبلج ما قلناه والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن، فصل في استحباب التكبير عند الختم، (حديث: 2082).

(3) قال أحمد: الصواب أنّ الإجابة مقرونة بالمشيئة لا بالمصلحة، = وإنما تقف الإجابة على المصلحة عند القدرية لإيجابهم على الله تعالى رعاية المصالح، فقول الزمخشري: لا يحسن الدعاء من العبد إلا شارطاً فيه المصلحة فاسد، فإنّ المشيئة شرط في إجابة الدعاء اتفاقاً ومع نلك نهى النبي ﷺ أن يقول الداعي: «اللهم اغفر لي إن شئت».

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿يهديكم﴾ بالنجوم في السماء والعلامات في الأرض إذا جنّ الليل عليكم مسافرين في البر والبحر.

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾.

فإن قلتَ: كيف قيل لهم:
﴿أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ وهم منكرون للإعادة! **قلتُ:** قد أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة، والإقرار فلم يبق لهم عذر في الإنكار **﴿من السماء﴾** الماء **﴿و﴾** من **﴿الأرض﴾** النبات **﴿إن كنتم صادقين﴾** أنّ مع الله إلهًا فأين دليلكم عليه.

فإن قلتَ: لم رفع اسم الله والله يتعالى أن يكون ممن في السموات والأرض؟ **قلتُ:** جاء على لغة بني تميم حيث يقولون: ما في الدار أحد إلا حمار يريدون: ما فيها إلا حمار وكأن أحدًا لم يذكر ومنه قوله:

عشية ما تغني الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفي المصمم

وقولهم: ما أتاني زيد إلا عمرو وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه.

فإن قلتَ: ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي؟

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾.

قلتُ: دعت إليه نكتة سرية حيث أخرج المستثنى مخرج قوله: إلا اليعافير بعد قوله: ليس بها أنيس ليؤل المعنى إلى قولك: إن كان الله ممن في السموات والأرض فهم يعلمون الغيب يعني: أنّ علمهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم كما أنّ معنى ما في البيت إن كانت اليعافير أنيسًا ففيها أنيس بتا للقول بخلوها عن الأنيس.

فإن قلتَ: هلا زعمت أنّ الله ممن في السموات والأرض كما يقول المتكلمون: الله في كل مكان على معنى أنّ علمه في الأماكن كلها فكأن ذاته فيها حتى لا تحمله على مذهب بني تميم! **قلتُ:** يأبى ذلك أن كونه في السموات والأرض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازًا، غير صحيحة على أنّ قولك من في السموات والأرض وجمعك بينه وبينهم في إطلاق اسم واحد فيه إبهام تسوية والإيهامات مزالة عنه وعن صفاته تعالى ألا ترى كيف قال ﷺ لمن قال: ومن يعصهما فقد غوى: بئس خطيب القوم أنت[1] وعن عائشة رضي الله عنها: من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول: **﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾**[2]، وعن بعضهم: أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحدًا لئلا يأمن أحد من عبيده مكره، وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة **﴿أيان﴾** بمعنى متى ولو سمي به لكان فعالا من آن يئين، ولا يصرف وقرئ إيان بكسر الهمزة.

بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾.

وقرئ بل أدرك بل ادراك بل إدراك بل تدارك بل أأدرك بهمزتين بل آادرك بألف بينهما بل أدرك بالتخفيف، والنقل بل أدرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أأدرك على الاستفهام بلى أدرك بلى أأدرك أم، تدارك أم أدرك فهذه ثنتا عشرة قراءة وادارك أصله تدارك فأدغمت التاء في الدال وادّرك افتعل ومعنى **﴿أدرك علمهم﴾** انتهى، وتكامل وادّرك تتابع واستحكم وهو على وجهين أحدهما: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيه قد حصلت لهم، ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون وهو قوله: بل هم في شك منها بل هم منها عمون يريد: المشركين ممن في السموات والأرض: لأنهم لما كانوا في جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع كما يقال: بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم.

فإن قلتَ: إن الآية سيقت لاختصاص الله بعلم الغيب وأن العباد لا علم بشيء منه وأن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به فكيف لاءم هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة؟ **قلتُ:** لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب ولا يشعرون بالبعث الكائن، ووقته الذي يكون فيه وكان هذا بيانًا لعجزهم ووصفًا لقصور علمهم وصل به أن عندهم عجزًا أبلغ منه، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بدّ أن يكون وهو وقت جزاء أعمالهم لا يكون مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به. والوجه الثاني: أن وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكم بهم كما تقول: لأجهل الناس ما أعلمك على سبيل الهزو، وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذي الطريق إلى علمه مسلوك فضلاً أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته وفي أدرك علمهم وادارك علمهم وجه آخر، وهو أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك: أدركت الثمرة؛ لأنّ تلك غايتها التي عندها تعدم، وقد فسره الحسن رضي الله عنه؛ باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك.

فإن قلتَ: فما وجه قراءة مَن قرأ: بل أأدرك على الاستفهام! **قلتُ:** هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة (الحديث: 48 ـ 870).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النجم، باب: (1)= (الحديث: 4855)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل ولقد رآه نزلة أخرى... الحديث: (287 ـ 177).

علمهم وكذلك من قرأ أم أدرك وأم تدارك لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة.

فإن **قُلْتَ**: فمن قرأ بلى أدرك وبلى أأدرك! **قُلْتُ**: لما جاء ببل بعد قوله: ﴿**وما يشعرون**﴾ كان معناه بلى يشعرون، ثم فسر الشعور بقوله: أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم فكأنه قال: شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها، فيرجع إلى نفي الشعور على أبلغ ما يكون، وأما من قرأ بلى أأدرك على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون ثم أنكر علمهم بكونها وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها لأنّ العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن ﴿**في الآخرة**﴾ في شأن الآخرة ومعناها.

فإن **قُلْتَ**: هذه الاضطرابات الثلاث ما معناها! **قُلْتُ**: ما هي إلا تنزيل لأحوالهم وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه لا يخطر بباله حقًا ولا باطلاً ولا يفكر في عاقبة وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشاه فلذلك عداه بمن دون عن لأنّ الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾.

العامل في إذا ما دلّ عليه ﴿**أئنا لمخرجون**﴾ وهو نخرج؛ لأنّ بين يدي عمل اسم الفاعل فيه عقابًا وهي همزة الاستفهام وإن ولام الابتداء وواحدة منها كافية فكيف إذا اجتمعن، والمراد: الإخراج من الأرض أو من حال الفناء إلى الحياة وتكرير حرف الاستفهام بإدخاله على إذا وإن جميعًا إنكار على إنكار وجحود عقيب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه والضمير في إنّا لهم ولآبائهم؛ لأنّ كونهم ترابًا قد تناولهم وآباؤهم.

لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾.

فإن **قُلْتَ**: قدم في هذه الآية ﴿**هذا**﴾ على ﴿**نحن وآباؤنا**﴾ وفي آية أخرى قدم ﴿**نحن وآباؤنا**﴾ على ﴿**هذا**﴾! **قُلْتُ**: التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر، وإن الكلام إنما سيق لأجله ففي إحدى الآيتين دلّ على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد.

قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾.

لم تلحق علامة التأنيث بفعل العاقبة لأنّ تأنيثها غير حقيقي ولأنّ المعنى كيف كان آخر أمرهم، وأراد بالمجرمين الكافرين وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجرام ليكون لطفًا للمسلمين في ترك الجرائم وتخوف عاقبتها ألا ترى إلى قوله: ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾[1] وقوله: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾[2].

وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾.

﴿**ولا تحزن عليهم**﴾ لأنهم لم يتبعوك ولم يسلموا فيسلموا وهم قومه قريش كقوله تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا﴾[3] ﴿**في ضيق**﴾ في حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك ولا تبال بذلك فإن الله يعصمك من الناس يقال: ضاق الشيء ضيقًا وضيقًا بالفتح والكسر وقد قرئ بهما والضيق أيضًا تخفيف الضيق قال الله تعالى: ﴿ضيقًا حرجًا﴾[4] قرئ مخففًا ومثقلاً، ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم.

قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾.

استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم: ﴿**عسى أن يكون**﴾ ردف لكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في ولا تلقوا بأيديكم أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وقد عدى بمن قال: فلما ردفنا من عمير وصحبه، تولوا سراعًا والمنية تعنق يعني: دنونا من عمير وقرأ الأعرج: ردف لكم بوزن ذهب وهما لغتان والكسر أفصح وعسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الأمر وجده وما لا مجال للشكّ بعده، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أنّ عدوّهم لا يفوتهم، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾.

الفضل والفاضلة: الإفضال ولفلان فواضل في قومه وفضول، ومعناه: أنه مفضل عليهم بتأخير العقوبة وأنه لا يعاجلهم بها وأكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه، ولكنهم بجهلهم يستعجلون وقوع العقاب وهم قريش.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾.

قرئ: تكن يقال: كننت الشيء وأكننته: إذا سترته

---

(1) سورة الشمس، الآية: 14.
(2) سورة نوح، الآية: 25.
(3) سورة الكهف، الآية: 6.
(4) سورة الأنعام، الآية: 125.

وأخفيته يعني: أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ﷺ ومكايدهم وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبونه.

وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾.

سمى الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العافية والعاقبة ونظائرهما النطيحة والرمية والذبيحة في أنها أسماء غير صفات، ويجوز أن يكونا صفتين وتأوهما للمبالغة كالراوية في قولهم: ويل للشاعر من راوية السوء كأنه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته في اللوح المبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة.

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾.

قد اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزابًا ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضًا، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا يريد: اليهود والنصارى.

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾.

﴿للمؤمنين﴾ لمن أنصف منهم وآمن أي: من بني إسرائيل، أو منهم ومن غيرهم.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾.

﴿بينهم﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به.

فإن قُلْتَ: ما معنى: يقضي بحكمه ولا يقال: زيد يضرب بضربه ويمنع بمنعه؟ **قُلْتُ:** معناه بما يحكم به وهو عدله؛ لأنه لا يقضي إلا بالعدل فسمى المحكوم به: حكمًا أو أراد بحكمته وتدل عليه قراءة من قرأ بحكمه: جمع حكمة ﴿وهو العزيز﴾ فلا يردّ قضاؤه ﴿العليم﴾ بمن يقضي له وبمن يقضي عليه أو العزيز في انتقامه من المبطلين العليم بالفصل بينهم وبين المحقين.

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾.

أمره بالتوكل على الله، وقلة المبالات بأعداء الدين وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشكّ والظنّ وفيه بيان أنّ صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته وأن مثله لا يخذل.

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾.

فإن قُلْتَ: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ يشبه أن يكون تعليلاً آخر للتوكل، فما وجه ذلك! **قُلْتُ:** وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسببًا عما كان يغيظ رسول الله ﷺ من جهة المشركين وأهل الكتاب من ترك اتباعه وتشييع ذلك بالأذى والعداوة فلاءم ذلك أن يعلل توكل متوكل مثله بأن اتباعهم أمر قد يئس منه، فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم وشبههوا بالموتى، وهم أحياء صحاح الحواس: لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقماع القول لا تعيه آذانهم، وكان سماعهم كلا سماع كانت حالهم لانتفاء جدوى السماع كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع وكذلك تشبيههم بالصمّ الذين ينعق بهم فلا يسمعون وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم وأن يجعلهم هداة بصراء إلا الله عز وجل.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿إذا ولوا مدبرين﴾! **قُلْتُ:** هو تأكيد لحال الأصم؛ لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولى عنه مدبرًا، كان أبعد عن إدراك صوته.

وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾.

وقرئ ولا يسمع الصمّ وما أنت بهادي العمي على الأصل وتهدي العمي وعن ابن مسعود: وما أن تهدي العمي، وهداه عن الضلال كقولك: سقاه عن العيمة أي: أبعده عنها بالسقي وأبعده عن الضلال بالهدى ﴿إن تسمع﴾ أي: ما يجدي إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته أي: يصدقون بها ﴿فهم مسلمون﴾ أي: مخلصون من قوله: ﴿بلى مَن أسلم وجهه لله﴾ يعني: جعله سالمًا لله خالصًا له سمى معنى القول.

❁ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾.

ومؤداه بالقول وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ووقوعه: حصوله والمراد: مشارفة الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة ودابة الأرض الجساسة جاء في الحديث أنّ طولها ستون ذراعًا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب[1] وروي لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان وعن ابن جريج في وصفها: رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن إبل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هر وذنب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعًا بذراع آدم عليه السلام، وروي لا تخرج إلا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أو يبلغ السحاب وعن أبي هريرة: فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب، وعن الحسن رضي الله عنه: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام وعن علي رضي الله عنه: أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون، فلا يخرج إلا ثلثها وعن النبي ﷺ أنه سئل من أين تخرج الدابة فقال: من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعني: المسجد الحرام، وروي أنها تخرج ثلاث خرجات تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهرًا طويلاً فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، زيلعي 3/19.

على الله[1]، فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون، وقوم يقفون نظارة وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية بلسان ذلق فتقول: ﴿أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ يعني: أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي؛ لأنّ خروجها من الآيات وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين، وعن السدي تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام وعن ابن عمر رضي الله عنه تستقبل المغرب، فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المشرق ثم الشام ثم اليمن فتفعل مثل ذلك وروي: تخرج من أجياد، وروي: بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتضرب المؤمن في مسجده أو فيما بين عينيه بعصا موسى عليه السلام، فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيء لها وجهه أو فتترك وجهه كأنه كوكب درّي وتكتب بين عينيه مؤمن، وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر وروي: فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم ثم تقول لهم: يا فلان أنت من أهل الجنة ويا فلان أنت من أهل النار وقرئ: تكلمهم من الكلم، وهو: الجرح والمراد به: الوسم بالعصا والخاتم ويجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضًا على معنى التكثير يقال: فلان مكلم أي: مجرح ويجوز أن يستدل بالتخفيف على أن المراد بالتكليم: التجريح، كما فسر لنحرقنه بقراءة علي رضي الله عنه: لنحرقنه، وأن يستدل بقراءة أبيّ: تنبئهم، وبقراءة ابن مسعود: تكلمهم بأنّ الناس على أنه من الكلام، والقراءة بإن مكسورة حكاية لقول الدابة، إما لأنّ الكلام بمعنى القول، أو بإضمار القول أي: تقول الدابة ذلك، أو هي حكاية لقوله تعالى عند ذلك.

فإن قُلْتَ: إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف تقول بآياتنا؟ قُلْتُ: قولها حكاية لقول الله تعالى، وعلى معنى بآيات ربنا أو لاختصاصها بالله وأثرتها عنده وأنها من خواص خلقه أضافت آيات الله إلى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك: خيلنا وبلادنا وإنما هي خيل مولاه وبلاده ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار أي: تكلمهم بأن.

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿فهم يوزعون﴾ يحبس أوّلهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار وهذه عبارة عن كثرة العدد، وتباعد أطرافه كما وصفت جنود سليمان بذلك وكذلك قوله: ﴿فوجًا﴾ فإن الفوج: الجماعة الكثيرة ومنه قوله تعالى: ﴿يدخلون في دين الله أفواجًا﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة، وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ قُلْتُ: الأولى للتبعيض والثانية للتبيين كقوله: ﴿من الأوثان﴾[2].

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾.

الواو للحال كأنه قال: أكذبتم بها بادئ الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب أو للعطف أي: أجحدتموها ومع جحودكم لم تلقوا أذهانكم لتحققها، وتبصرها فإنّ المكتوب إليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ بها للتبكيت لا غير وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب، فلا يقدرون أن يكذبوا ويقولوا: قد صدّقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب ومثاله أن تقول: لراعيك وقد عرفته رويعي سوء: أتأكل نعمي أم ماذا تعمل بها فتجعل ما تبتدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صحّ عندك من أكله وفساده، وترمي بقولك أم ماذا تعمل بها مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتبهته وتعلمه علمك بأنه لا يجئ منه إلا أكلها، وأنه لا يقدر أن يدّعي الحفظ والإصلاح لما شهر من خلاف ذلك أو أراد أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر، والتكذيب بآيات الله أم مّاذا كنتم تعملون من غير ذلك يعني: أنه لم يكن لهم عمل غيره كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية، وإنما خلقوا للإيمان والطاعة يخاطبون بهذا قبل كبهم في النار ثم يكبون فيها وذلك قوله:

﴿ووقع القول عليهم﴾ يريد: أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾[3].

أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾.

جعل الإبصار للنهار وهو لأهله.

فإن قُلْتَ: ما للتقابل لم يراع في قوله: ﴿ليسكنوا﴾ و﴿مبصرًا﴾ حيث كان أحدهما علة، والآخر حالاً! قُلْتُ: هو مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف؛ لأنّ معنى مبصرًا: ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب.

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 4/484.
(2) سورة الحج، الآية: 22.
(3) سورة المرسلات، الآية: 35.

شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾.

فإن قُلْتَ: لم قيل: ﴿ففزع﴾ دون فيفزع؟ **قُلْتُ:** لنكتة وهي: الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض؛ لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿إلا من شاء الله﴾ إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام، وقيل: الشهداء. وعن الضحاك الحور وخزنة النار وحملة العرش وعن جابر منهم موسى عليه السلام؛ لأنه صعق مرّة ومثله قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾، وقرئ: أتوه وأتاه ودخرين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر: الصاغر وقيل: معنى الإتيان: حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ويجوز أن يراد: رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له.

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾.

﴿جامدة﴾ من جمد في مكانه: إذا لم يبرح، تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفة ثابتة في مكان واحد ﴿وهي تمرّ﴾ مرًّا حثيثًا كما يمر السحاب، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحرّكت لا تكاد تتبيَّن حركتها كما قال النابغة في صفة جيش:

بارعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

﴿صنع الله﴾ من المصادر المؤكدة كقوله: ﴿وعد الله﴾ و﴿صبغة الله﴾ إلا أنّ مؤكده محذوف، وهو الناصب ليوم ينفخ والمعنى: ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال: ﴿صنع الله﴾ يريد به: الإثابة والمعاقبة وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها، وأتى بها على الحكمة والصواب حيث قال: ﴿صنع الله الذي أتقن كلّ شيء﴾ يعني: أنّ مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه، فيكافئهم على حسب ذلك. ثم لخص ذلك بقوله:

﴿من جاء بالحسنة﴾ إلى آخر الآيتين فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة إضماده ورصانة تفسيره وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغًا واحدًا ولأمر ما أعجز القوى، وأخرس الشقاشق ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد بصحته والمنادي على سداده، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان ألا ترى إلى قوله: صنع الله وصبغة الله ووعد الله وفطرة الله بعدما وسمها بإضافتها إليه بسمة التعظيم كيف تلاها بقوله: ﴿الذي أتقن كلّ شيء﴾ ومن أحسن من الله صبغة لا يخلف الله الميعاد لا تبديل لخلق الله، وقرئ ﴿تفعلون﴾ على الخطاب ﴿فله خير منها﴾ يريد: الإضعاف وأنّ العمل ينقضي والثواب يدوم وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد وقيل: فله خير منها أي: له خير حاصل من جهتها وهو: الجنة، وعن ابن عباس: الحسنة كلمة الشهادة، وقرئ: ﴿يومئذٍ﴾ مفتوحًا مع الإضافة؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن قوله وأخرس الشقاشق في الصحاح شقشق الفحل شقشقة هدّر وإذا قالوا للخطيب: ذو شقشقة فإنما يشبه بالفحل ومنصوبًا مع تنوين فزع.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين الفزعين؟ **قُلْتُ:** الفزع الأوّل: هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدّة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به كما يدخل الرجل على الملك بصدر هياب وقلب وجاب وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة وإحسان وتولية، وأمّا الثاني: فالخوف من العذاب.

فإن قُلْتَ: فمن قرأ: ﴿من فزع﴾ بالتنوين ما معناه! **قُلْتُ:** يحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب، وأمّا ما يلحق الإنسان من النهيب والرعب لما يرى من الأهوال والعظائم فلا يخلون منه؛ لأنّ البشرية تقتضي ذلك، وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه ومن فزع شديد مفرط الشدّة لا يكتنهه الوصف وهو: خوف النار، أمّن يعدى بالجارّ وبنفسه كقوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾[1].

وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾.

وقيل: السيئة: الإشراك، يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل: فكبوا في النار كقوله تعالى: ﴿فكبكبوا فيها﴾[2] ويجوز أن يكون ذكر الوجوه إيذانًا بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين ﴿هل تجزون﴾ يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول.

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾.

أمر رسوله بأن يقول: ﴿أمرت﴾ أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكًا كما فعلت قريش وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام.

وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾.

﴿وأن أتلو القرآن﴾ من التلاوة أو التلو كقوله: ﴿واتبع

(1) سورة الأعراف، الآية: 99.

(2) سورة الشعراء، الآية: 94.

ما يوحى إليك﴾[1]، والبلدة: مكة حرسها الله تعالى اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها: لأنها أحبّ بلاده إليه وأكرمها عليه وأعظمها عنده وهكذا قال النبي ﷺ حين خرج في مهاجره فلما بلغ الحزورة استقبلها بوجهه الكريم فقال: إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت[2] وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب دالاً على أنها موطن نبيّه ومهبط وحيه ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو ووصفها بأنها محرّمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها واللاجئ إليها آمن، وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيّته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما وفي ذلك إشارة إلى أن ملكًا ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء[3]. اللهم بارك لنا في سكناها وآمنا فيها شر كل ذي شر، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك وقرئ: التي حرّمها واتل عليهم هذا القرآن عن أبيّ وأن أتل عن ابن مسعود ﴿فمن اهتدى﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفي الأنداد عنه والدخول في الملة الحنيفية واتباع ما أنزل عليّ من الوحي فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ ﴿ومن ضلّ﴾ ولم يتبعني فلا عليّ وما أنا إلا رسول منذر وما على الرسول إلا البلاغ.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم أمره أن يحمد الله على ما خوّله من نعمة النبوّة التي لا توازيها نعمة، وأن يهدّد أعداءه بما سيريهم الله من آياته التي تلجئهم إلى المعرفة، والإقرار بأنها آيات الله وذلك حين لا تنفعهم المعرفة يعني: في الآخرة. عن الحسن وعن الكلبي: الدخان وانشقاق القمر وما حلّ بهم من نقمات الله في الدنيا، وقيل: هو كقوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾[4] الآية. وكل عمل يعملونه فالله عالم به غير غافل عنه؛ لأنّ الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذات[5]، وهو من وراء جزاء العاملين قرئ: ﴿تعملون﴾ بالتاء والياء. عن رسول الله ﷺ: من قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله[6].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القصص مكية

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾.

﴿من نبا موسى وفرعون﴾ مفعول ﴿نتلو﴾ أي: نتلو عليك بعض خبرهما ﴿بالحق﴾ محقين كقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾[7] ﴿لقوم يؤمنون﴾ لمن سبق في علمنا أنه يؤمن؛ لأنّ التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾.

﴿إنّ فرعون﴾ جملة مستانفة كالتفسير للمجمل كأن قائلاً قال: وكيف كان نبؤهما، فقال: ﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾ يعني: أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحدّ في الظلم والعسف ﴿شيعًا﴾ فرقًا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه قال الأعشى:

وبلدة يرهب الجواب دلجتها حتى تراه عليها يبتغي الشيعا

أو يشيع بعضهم بعضًا في طاعته أو أصنافًا في استخدامه يتسخر صنفًا في بناء وصنفًا في حرث وصنفًا في حفر ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقًا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة وهم بنو إسرائيل والقبط، والطائفة المستضعفة بنو إسرائيل، وسبب ذبح الأبناء: أنّ كاهنًا قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده وفيه دليل بيّن على ثخانة حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن، وإن كذب فما وجه القتل ﴿ويستضعف﴾ حال من الضمير في وجعل أو صفة لشيعا أو كلام مستانف و﴿يذبح﴾ بدل من يستضعف، وقوله: ﴿إنه كان من المفسدين﴾ بيان أنّ

---

(1) سورة يونس، الآية: 109.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحج، باب: فضل مكة، (الحديث: 3708)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل مكة، (الحديث: 3925)، وابن ماجه في المناسك باب: فضل مكة، الحديث: 3108. وأحمد في المسند 4/305. والحاكم في المستدرك 3/431.

(3) قال أحمد: وتحت قوله: وله كل شيء، فائدة أخرى سوى ذلك وهي: أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفاً لها اتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها، وتنبيهاً على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف، لا لأنها ملك الله تعالى خاصة، والله أعلم.

(4) سورة فصلت، الآية: 53.

(5) قال أحمد: قد سبق له جحد صفة العلم وإيهام أن سلبها داخل في تنزيه الله تعالى؛ لأنه يجعل استحالة الغفلة عليه معللة بأنه عالم بالذات لا بعلم، والحق أن استحالة الغفلة عليه تعالى؛ لأنّ علمه لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض، بل هو علم قديم أزلي عامّ التعلق بجميع الواجبات والممكنات والممتنعات، ولا يتوقف تنزيهه تعالى على تعطيل صفاته وكماله وجلاله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(6) ذكره الثعلبي وابن مردويه، والواحدي في التفسير، زيلعي 2/23.

(7) سورة المؤمنون، الآية: 20.